التلمذة الفلسفية
هانز جورج غادامير
ترجمة: علي حاكم صالح وحسن ناظم
(دار الكتاب الجديد)

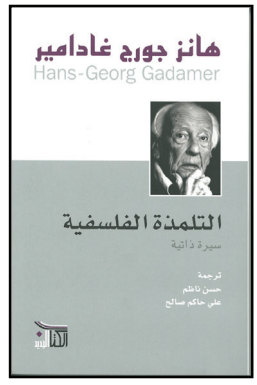

نيّف عمرُ الفيلسوف الألمانيّ هانز جورج غادامير على المائة (ولد في ماربورغ في ١١ شباط ١٩٠٠ - وتوفّي في هايدلبيرغ في ١٤ آذار ٢٠٠٢). عاش الحربين العالميتين، وحقبةَ الاحتلال الأميركي الروسي لألمانيا، وتفكّكَ بلدِه إلى ألمانيتين، عاش وعمل في كليهما، وشهد توحيدَهما وانهيار جدار برلين. سافر في طولِ العالم وعَرْضِه، ودرّس في أكثر من بلد وبأكثر من لغة، والتقى جلَّ أقطاب الفلسفة في القرن العشرين. وعمل أستاذاً للفلسفة، ورئيساً لجامعة، ومؤسساً لمؤتمرات فلسفية، ولجماعات فكرية، وكان عضواً في حلقات وندوات ومؤتمرات لا تُعَدّ. من هنا تكتسب حياتُه أهمية كمّاً وكيفاً. فخلال قرن وثلاث سنين لم يسأم تكاليفَ الفلسفة والحياة واحتضنهما حتى آخر رَمَق. إنه «الشاهدُ المطلق» كما قال جاك دريدا، الذي لم يصدّق، بحسب تعبيره الذي ينشد المفارقة دائماً، أن غادامير مات أخيراً بعد أزيد من قرن من الحياة. فقد تعوّد دريدا على فكرة أن غادامير لا يموت؛ لأنه، كما قال، لم يكن إنساناً حتى يموت. وهذا الكتاب يعوّدنا على أنه عادة ما يُؤَبِّنُ الآخرين من أصدقائه، لا أن يكون مُؤَبَّناً من الآخرين. لكأن دريدا بشعوره ذاك يذكّرنا بالشيء «اللازماني»، الشيء ذي «الطراز الأثريّ» الذي خامر غادامير حين رأى الفيلسوف كارل لويث كما يصفه في هذا الكتاب.

والكتاب، التلمذة الفلسفية (الصادر عن دار الكتاب الجديد، بيروت، العام ٢٠١٢، ترجمة د. حسن ناظم وعلي حاكم صالح)، كتاب في السيرة الذاتية يعرض بعضاً من مراحل حياة غادامير ونموّها وتحولها الفكري منضفرةً بحيوات آخرين، وأمكنة، وتقلّبات سياسية واجتماعية لتاريخ وطن غادامير ألمانيا. إن واحداً من مفاتيح سيرة غادامير الذاتية هو القبسة التي صدّر بها كتابَه: من الأولى عدم الحديث عن الذات de nobis ipsis silemus. وهو يضع هذه المقولة قبسةً في مستهلّ كتابه الذي دوّنه بنيّة وضع سيرته الذاتية. ولذا هو ينبّهنا بدءاً على أن من الأفضل الصمت بإزاء الذات، بل يجب عدم الحديث عنها. ويتخذ هذا القول عنده بُعْدَ المبدأ الذي يسعى إلى تطبيقه غالباً في الكتاب. التلمذة الفلسفية سيرة ذاتية غاداميرية بناها الآخرون بحيواتهم. إنها سيرة ذاتية آخرية: سيرة تكشّفت عبر الفلاسفة الآخرين الذين عاش معهم متعلّماً منهم، مراقباً ومدققاً في سلوكياتهم وتفلسفهم. في الحقيقة، إذا استثنينا جزءاً بسيطاً من هذه السيرة، وهو الجزء المتعلق بتفصيلات عن مراهقته وشبابه، سنجد سيرة للآخرين الذين عاش معهم غادامير. فكلّ عنوان من عناوين هذه السيرة، إنما يتعلق بحياة فيلسوف ألمانيّ خَبَرَ سجيّتَه وشخصَه

ودقائقَ حياته ناهيك عن تفلسفه. يكتب غادامير في سيرته الفلسفية الذاتية – الغيرية عن عشرة فلاسفة ألمان، ويمرّ سريعاً بعشرات الأسماء والأمكنة الأخرى. يتحدث عن صغير أشيائهم وكبيرها، عن كيفية تفلسفهم، وحماسة كلامهم، وجمال خطّ أيديهم، وعن لفتات عيونهم، وحركات أيديهم، وأشكال لحاهم، وملابسهم، وأمكنة سكناهم، وحتى أحذيتهم: عنهم فلاسفةً وبشراً.

وحديثه هذا وثيقة اجتماعية بامتياز. وثيقة يكتبها مفكر كبير عاش وعاين كيف يتدهور العالم الاجتماعي، والعلاقات الاجتماعية، وكيف تُظهر النفوسُ البشرية طبائعَها واستعداداتِها النفسية الخفية حين يتأزمُ مجتمع معين نتيجةَ وقوعِه أسيرَ توجهات آيديولوجية متسلطة وقاهرة. وكيف تتردى النفوس، وتعتاش على الصغائر، وكيف أيضاً تصون النفوسُ الكبيرة كِبَرَها، وتحافظ على كينونتها الإنسانية الناصعة مهما تردّى العالم من حولها وتآكل. بهذا الاعتبار يُقرأ هذا الكتاب وثيقة اجتماعية تعين على الفهم، ليس فهم مجتمع غادامير آنذاك فقط، بل فهم كلّ مجتمع يعاني من القهر والتسلط وخراب النفوس والعقول، خراب تؤسسه عقول، ليمتدَّ بعد ذلك مثل سرطان في أوصال المجتمع الأخرى. وهو أيضاً وثيقة اجتماعية تاريخية فكرية تفصّل لنا المناخ الفكري السائد آنذاك، وكيف تتصارع الأفكار، يخبو بعضُها، وينمو بعض آخر ويسود. ويسهم في تجلية آليات هذه الحركة الجدلية بطبيعتها: جدل الأفكار والمفكرين. وهو جدل مصوَّر هنا تصويراً تفصيلياً، يتناول الفكرة بلحمها ودمها إن صحّ التعبير.

في هذه السيرة يصفّي غادامير طبعَ الإفراط في الثقة بالذات، إذ يكتب هذا الفيلسوف الكبير لنا كيف أنه كان في عشرينياته يحتدّ في الجدال وعُدّته بضعة دروس عامة واليسير من أفلاطون، ويصف كيف أعلن أحدُهم مرة أن الظاهراتية هي الوحيدة التي يمكن أن تعيد تشكيلَ العالم، في وقت كان هو للتوّ قد سمع بالمصطلح، وما كان منه إلاّ أن احتضن بإخلاص هذه الفكرة دون معرفة بالمفهوم. حتى أنه يذكر لنا حادثة طريفة، أيام كان شديداً مع طلبته حين يطلب منهم إعادة العمل على أطروحاتهم مرات ومرات، في هذه الحادثة يسخرُ فيها من نفسِه هو حينما دفع لاحقاً أطروحتَه للدكتوراه إلى زوجته لتقيّمَها فأبلغته أنها لن ترضيَه هو نفسه لو قرأها بجدية. هذا الاعتراف بالقصور دفع الشاب غادامير إلى مزيد من التعلّم والتلمذة على يد الآخرين، ومن حُسن طالعه أنه عاش في عصر وبيئة يعجّان بكبار الفلاسفة الألمان، وفي طليعتهم هيدغر الذي صدم غادامير بقوته وفكره ولغته على نحو لم نكن لنعرفه لولا تواضع غادامير وتدوينه كلّ ذلك الانبهار في عديد من المناسبات.

لكن ثمة معانيَ عدة لهذه القبسة. لقد استخدم هذه العبارة الفيلسوف الإنجليزي فرانسس بيكون (١٥٦١–١٦٢٦) في توطئة كتابه التجديد العظيم Instauratio Magna. واستخدمها الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (١٧٢٤–١٨٠٤) في كتابه نقد العقل المحض ليمثّل نظرة للعالم أتت في أعقاب نقد الميتافيزيقا، وتحوّل الذات إلى أساس للمعرفة، وبعد ثورة كوبرنيقوس التي بيّنت ضآلة الوجود الإنساني في الكون. هكذا تداعت

مركزيـة الذات أمام هذا العصـر الجديد. إنها تحيل على تواضع متطلّب في بعض جوانبها، فهي تعني أننا لا نأخد أنفسـنا بعين الاعتبار، بل يجـب أن نصمت بإزائها. ولذا اسـتخدمها صموئيـل بيكيـت أيضـاً في قصيـدة تناولت كارثـة الهـزّة الأرضية فـي لشـبونه (البرتغال) فـي العام ١٧٥٥، إذ لا مجال للحديث عن الذات والكارثة.

بالنسبة لقرّاء الكتاب بالعربية، لا سيما من عاش تحت قهر نظام دكتاتوري، يُلقي هذا الكتاب، بسـبب من بعض أوجه الشبه العديدة من جهة العالم الاجتماعي السياسي الذي عاشـوا فيه، الضـوءَ على نوع الحياة التي سـادت، أو يمكن أن تسـودَ الحيـاة الأكاديمية، والحياة بعامة، في مجتمع يتـأزمُ فيه الخطابُ السياسـي، لتغـدوَ الحياة فيه محـضَ مصادفـة، بالضبط كمـا الحياة، التـي دامت أكثر مـن قرن، والتي سـيطالع القـارئُ تفصيلاتِها. فـأن يلقيَ الفيلسـوف محاضراتِـه في مبنى كان تحـت القصف في الليلة السـابقة، وأن يسـأله أحدُ الطلبة سـؤالاً موارباً عن رأي أفلاطـون بالطاغية، وأن تكون سـفرة خـارج البلاد لبضعـة أيـام يتنفس فيها غادامير معنـى الخروج من ربقة دكتاتـور، هذا يعني أن هذه الحيـاة كانت عرضة للموت الاعتباطـي فـي كلّ آن. وهـو المـوت الاعتباطـي الذي عانـاه بعـض من زمـلاء غادامير، والمنافي التي عاشـها بعض آخر.

يلقـي غادامير الضوء على أحـوال الجامعـة بألمانيا فـي ربيع العام ١٩٣٣، زمن صعود هتلر. وكيف داهمت الجامعيين المراسـيمُ الأكاديمية الجديدة المتعلقة بتحية هتلر، وكيـف أصبح رفض تحية هتلر طرداً من الجامعة، وكيـف أن هنـاك أسـاليبَ لتأديـة التحيـة، أسـاليب تنـمّ عـن مقدار القناعـة بها. ولا ينسـى أن يحدثنا عن عشـق الخطابـات البليغـة لـدى النازيين. وصـف غادامير هتلر حين شـاهده عن بُعْـد، فرأى فيه السـذاجة والخرَقَ، رآه «مثل طفل يؤدي دور جندي». فكم يبدو هذا مألوفاً لدينا إذا تمعّنا في أبطال العصر الحديث في منطقتنا، وكم تبدو الجامعة الألمانيـة التي يصفها غادامير مألوفة لدى جيلنا العراقـي إبّـان حكم البعـث. مصـدر المفارقـة والغرابة كيـف أن طاغية بهذا الوصف الـذي يذكره غادامير يركّع بلـداً مثل ألمانيا، ويفتت بخططـه الرعناء تقاليدَ أكاديمية راسـخة في ثقافـة كالثقافة الألمانية. وهذا أمر يسـتدعي التأمـل والمقارنة بأشـباه أميين تمكّنوا من سـحق بلدان وشعوب وتدميرها، من ستالين إلى صدام حسين.

وسيشـعر القـارئ بوقـع هـذه المفارقـة حيـن تضعه كلمـاتُ غادامير في وسـط المشـهد. إن تنويهَنا بتصادي كلمات غادامير في نفوس القراء المحتملين، سـمة تميّز السيرة الذاتية نوعاً أدبياً، فضلاً عمّا تحمله هذه السيرة من تذكير مباشـر وغير مباشـر بتشابه الشـرط الإنساني مهما كانت التباينات الزمانية أو الحضارية، فالشـرط الإنساني المسـحوق في ظلمة طاغية هو هو في كلّ زمان ومكان. والأهـمّ أن الخـرابَ الـذي يخلفـه وراءه هو هو نفسـه. لذلـك تتضمّخ هـذ الترجمة لغةً وتعبيراً بهـذا التصادي، وتحمـل بين طياتها، غيـر المرئية ربما، ذلك التماهي مع معاناة فيلسـوف في شرط إنساني متشـابه لدى الطرفين. إن السيرة الذاتية تكون سيرةَ قارئها أيضاً.

من مقدمة المترجمين